الفينيقيون والعمران

العمران بناء فسيح الرحاب قائم على دعائم كثيرة تتناول كل تصوّرات الانسان وتصديقاته وملابساته . لكنّ اقوى هذه الدعائم كلها الدين والعلم . والفضل الاكبر في انتشار هاتين الدعامتين وحفظهما القلم اي للكتابة بحروف الهجاء فان كل علم ليس في القرطاس ضاع وكل عقيدة لا تدوّن في بطون الاوراق تعبث بها اوهام العوام وايدي النسيان . فللقلم الفضل الاول في نشوء العمران واتساع نطاقه وامتداد رواقه

ولم يتصل الانسان الى استعمال القلم دفعةً واحدة بل شرع في ذلك تدريجًا منذ الوف من السنين حينما كان يرسم خطوطًا على قطع العظم والخشب للدلالة على ما في ضميره إما لحفظ ذلك الى المستقبل او لمخاطبة انسان بعيد به . ولم يزل بعض المتوحشين يفعل ذلك الى يومنا هذا فيعمد احدهم الى عصًا و يفرضها فروضًا مختلفة و يبعث بها الى شخص آخر فيفهم هذا مراد الشخص الاول كأنها رسالة مكتوبة بافصح عبارة واوضح اشارة . والظاهر ان الشعوب التي سكنت القطر المصري من قديم الزمان فاقت غيرها في نقش ما تريد حفظه من الاقوال والافعال على الاخشاب والحجارة وكانت في اول امرها ترسم ظلّ الجسم او شكله للدلالة عليه وتشتق من شكل بعض افعاله علامة للدلالة على ذلك الفعل فتستخدم صورة الانسان للدلالة عليه وكذا صورة الشمس والقمر والجبل والحيّة والزهرة والمرآة كل صورة منها للدلالة على الذات المصوّرة . وصورة الانسان راكعًا و باسطًا يديه للدلالة على التوسل والعبادة وصورة يدٍ فيها مصباح للدلالة على الليل وصورة عين مفتوحة للدلالة على الانتباه والعلم وصورة ريشة من ريش النعام للدلالة على العدل والمساواة لان ريش جناح النعامة متساوٍ . ثم انتقلوا من ذلك الى اختصار بعض الصور للدلالة على مقاطع الكلمات وعلى الاصوات المؤلفة منها . وهذا الاسلوب كان متّبعًا ايضًا في اشور ومادي وفارس ولم يزل متّبعًا في الصين . ولكن سكان مصر لم يقفوا عند هذا الحد بل اختصروا من هذه الصور اشارات للدلالة على حروف الهجاء الاّ انهم لم يقتصروا عليها في كتاباتهم ولا على صورة واحدة لكل حرف من حروفهم الاثنين والعشرين

ونزل الفينيقيون مصر في ذلك العهد او بعده واختاروا اثنتين وعشرين صورة فقط للدلالة على اثنين وعشرين صوتًا حاسبين ان اصوات النطق يمكن ردها كلها الى هذه الاصوات الاثنين والعشرين واقتصروا على الكتابة بهذه الحروف فقط ولذلك فاسلوب

الكتابة الشائع الآن شرقًا وغربًا هو اسلوب الفينيقيين ولولاهُ ما امكن تسهيل الكتابة وحفظ العلوم والفنون والاخبار والاديان

وقد ادّعى بعض الكتاب ان الفينيقيين اشتقوا صور حروفهم من الكتابة الاشوريّة او الفرصيّة ولكن المسيو برجه بحث في ذلك بحثًا مدققًا واثبت ما قالهُ شمبوليون وروج وماسبرو وهو ان الحروف الفينيقيّة مشتقة من الرسوم المصريّة. ومهما يكن من اصل هذه الحروف فلا شبهة في ان الفينيقيين هم اول من استعملها وعلم بقيّة الشعوب استعمالها فانتشرت في اوربا واسيا وقامت مقام جميع الخطوط القديمة في اقطار المسكونة. قال المسيو برجه[1] "ليس اعظم من سير هذه الحروف الهجائيّة لغلبة المسكونة فانها قضت على الممالك قضاء الفاتحين العظام ولكنها جرت في الشرق على ضد سير الشعوب المهاجرة فان الشعوب تسير من الشرق الى الغرب واما حروف الهجاء الفينيقيّة فسارت من الغرب الى الشرق واغارت على قلب اسيا من ثلاث جهات في وقت واحد فالفرع الهندي منها انتشر في بلاد الهند كلها و بلاد التبت والفرع السرياني انتشر في اواسط اسيا والفرع الاوربي او اليوناني الايطالي بلغ بلاد سيبيريا بعد ان انتشر في ممالك اوربا. وكل الابجديات المستعملة الآن في المسكونة مشتقة من ابجديّة الفينيقيين ذات الاثنين والعشرين حرفًا. وليس بين اختراعات الانسان ما يماثل اختراع هذه الحروف"

ومن الغريب ان سكان هذا القطر وسكان وادي الفرات وسهول الهند واكثر الشعوب القديمة كانوا يكتبون كتابة اكثر تعقيدًا واصعب مراسًا من الكتابة الفينيقيّة التي اعتمدوا عليها اخيرًا. والمشهور ان الناس ينتقلون من البسيط الى المركّب لا من المركّب الى البسيط. لكن اذا اعتبرنا ان الانسان مولع بالغريب من فطرته وان اهل السيادة سواء كانوا من خدمة الدين او من رجال السياسة كانوا يحاولون ان يبعدوا العامة عن مشاركتهم في ما يعلمونهُ رأينا سببًا لتمسّك الاقدمين بالكتابة المعقّدة التي بغض فهمها ويعسر تعلمها على العامة. ولم يكن الفينيقيون اقل تدينًا من غيرهم ولا كان رؤساؤهم اقل من غيرهم استئثارًا بالرئاسة والسؤدد ولكنهم كانوا اهل تجارة والتجار ينتشون عن الربح و يسهلون طرق المعاملات ولا يهتمون بسيادة ولا سلطة. وحتّى يومنا هذا نرى التاجر الذي تحسب ثروته بالملايين اعزل من كل لقب شرف وغيرهُ ممّن لا يكاد دخله يفي بنفقاتهِ الضروريّة يهتم

(1) Histoire de l'écriture dans l'antiquité. Par M. Philippe Berger

ومقالة المسيو فالبرعة في الرفيو دو ده مند

بجميع الالقاب والنياشين

والمعاملات التجاريّة تقتضي كتابة الصكوك وارسال المفاتيح والتحاريز من بلاد الى أخرى وكان الاشوريون يرسلون هذه المفاتيح والتحاريز من اشور الى مصر منقوشة على الاجر بالقلم الصفيني الكثير التعقيد والالتباس منذ نحو اربعة آلاف سنة فلم يرُق ذلك في عيون الفينيقيين ولم يستسهلوا تجّارهم فاستنبطوا حروف الهجاء وجعلوا المعاملات بها فوفت بحاجة التجار والصناع ورجال الدين والسياسة . وقد زاد اليونانيون عليها بعض الحروف ليكتبوا بها كل اصوات لغتهم وتعلمها منهم الرومان ثم انتشرت في بقيّة الممالك الاوربيّة كما انتشرت في الممالك الشرقيّة

فاذا كانت كتابة العقائد الدينيّة والامور العلميّة والقوانين السياسيّة ونشر ذلك في الكتب والجرائد من لوازم العمران بل من اعظم دعائمه كان للفينيقيين الفضل الاول في انتشار العمران لانهم اول من استعمل حروف الهجاء واذاعها في المسكونة

الرتيلاء الزهريّة

كتب المستر بل من مستعمرة الساحل الذهبي بغربي افريقية الى جريدة نانشر العلميّة بقول

كنت ذاهبًا من مدينة شاما الى مدينة سكندي في شهر اغسطس الماضي والارض هنالك كثيرة الآجام والانجم فرأيتُ في احد تلك الانجم شيئًا كالزهرة البيضاء فدنوت منهُ وامعنتُ نظري فيهِ واذا هو بيت من بيوت العنكبوت لا زهرة كما ظننتُ اولاً . وهذا البيت متصل بالاغصان التي حولهُ باطناب من الحرير الدقيق ويحيط بهِ ثلاثة سيور بيضاء لامعة منعجّة ووسطهُ مفتوح والخطوط الموصلة بين السيور دقيقة جدًّا حتّى لا تكاد ترى لدقتها . ومما يزيد مشابهة الزهر ان الرتيلاء كانت واقفةً في مركزهِ وفي زرقاء اللون وارجلها صفراء مرقطة برقط سمراء فتنتسم بها الزهرة الى اربعة اقسام وتظهر كانها ذات اربع اوراق (بتلات) . فوضعتُ شبكة تحت البيت ولمستهُ بيدي فوقعت الرتيلاء في الشبكة وحالما لمستُها استحال لونها الازرق الى ابيض ناصع . ولما هززت الشبكة بها عاد لونها فاستحال الى اسمر ضارب الى الخضرة . فوضعتها في اناء من الزجاج فعادت الى لونها الازرق . وكنت كلما هززت الاناء بها اراها تعود الى اللون الاسمر المخضر